٦ المسلمون والغزو الأوروبي للصومال

تتميز حركة الجهاد الإسلامي ضد القوى المسيحية في شرق أفريقيا بوجه عام، وفي بلاد الصومال على وجه الخصوص بأنها أكثر عمقا، وأشد صلابة من غيرها من حركات المقاومة والجهاد الإسلامي في بقية أجزاء القارة الأفريقية. ولعل ذلك يرجع في المقام الأول إلى أن هذه المنطقة عرفت الإسلام قبل غيرها وشهدت التحاما بين المسلمين والمسيحيين منذ فجر الدعوة الإسلامية، وذلك لأن المسيحية كانت قد وطنت مراكزها في الحبشة ضد ظهور الأسرة السليمانية في عام 1270 م، وظلت حتى منتصف القرن السادس عشر وهي تعمل على نشر المسيحية في هذه الجهات، وخصوصا بعد أن استردت الأسرة السليمانية وحدتها الداخلية كاملة [1].

وأصبح قيام الأسرة السليمانية مقرونا بحركة صبغ هذه البلاد بالصبغة المسيحية حيث أخذت هذه الأسرة تتطلع إلى السيطرة على الإمارات الإسلامية المجاورة، وصارت منطقة شرق أفريقيا وبلاد الصومال مسرحا لحركة صليبية ضخمة

ليست نابعة من داخل بلاد الحبشة فحسب، بل جاءت نتيجة التحام القوى الأوروبية التي راحت تتعقب المسلمين بعد طردهم من الأندلس في عام 1492، ومحاولات تعقبهم في شمال أفريقيا، والاتصال بملك الحبشة برستر جون بقصد الإطباق على المسلمين من كل جانب للقضاء على ثرواتهم بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح [2].

وكان البرتغاليون في قمة حماسهم الديني بعد طرد المسلمين، وضعف القوى الإسلامية في بلاد المغرب، فانتهزت ملكة الحبشة وتدعى هيلانة فرصة وجود الأسطول البرتغالي في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأبدت رغبتها في التفاوض مع ملك البرتغال عمانويل من أجل السعي لعقد تحالف معه. وقامت بإرسال خطاب إليه أشارت فيه إلى حاجة الحبشة إلى سفن البرتغال لنقل قواتها لغزو مكة وإغلاق البحر الأحمر عند باب المندب. وكانت هذه الرغبة المسيحية تمثل فصلا جديداً من الصراع بين المسلمين والمسيحيين [1].

وتزعم الجهاد ضد هذه القوى المسيحية التي شاركت فيها البرتغال مع الأحباش الزعيم المسلم والإمام الغازي أحمد بن إبراهيم الذي كان لجهاده أثر كبير في نشر الإسلام في شرق القارة، حيث شهد القرن السادس عشر دخول تبادل البدو في حركة الجهاد الإسلامي، وصار دخولها شبيها إلى حد كبير بظهور شعب الملثمين، وتبنيهم قضية جهاد الشيخ عبد الله بن يسن، أو تأييد قبائل الفولاني الشيخ عثمان بن فودي. ولذا كان إسلام قبائل العافار والصومالي نصرا كبيرا لحركة الجهاد الإسلامي في شرق أفريقيا.

استطاع الإمام أحمد بن إبراهيم أن يقف أمام غزو الأحباش الذين اندفعوا إلى غزو إمارة هرر الإسلامية في عام 1527، وهزم الأحباش لأول مرة في هذا الجهاد، ولم يتوقف عند حد الإغارات الخاطفة، بل بدأ يجهز الحملات إلى قلب الحبشة ذاتها. ففي عام 1529 انتصر على الأحباش وواصل غزو بلاد الحبشة من الداخل. وفي عام 1531 دخل منطقة شوا وأمهرة، ونجح المسلمون في السيطرة على جنوب بلاد الحبشة في عام 1535، وهاجم الإمام أحمد منطقة تيجري لأول مرة، واستنجد الأحباش بالبرتغاليين الذين أرسلوا قوة قوامها يزيد على أربعمائة مقاتل من حملة

البنادق لمناصرة الأحباش ضد هذا الجهاد الإسلامي، وهذا ما أعطى المعارك طابعا صليبيا.

واجه الزعيم المسلم البرتغاليين في المنطقة بين أمبا الآجي وبحيرة الشانجي عام 1542، ولقد جرح الإمام المسلم لكنه نجا من الأسر، واضطر إلى الاستنجاد بالوالي العثماني في زبيد الذي أرسل إليه قوة من تسعمائة من حملة البنادق وعشرة مدافع. ورأى فيه العثمانيون القوة المحركة التي تستطيع أن تقود الجبهة الجديدة، فأيدته وناصرته بالمال والرجال والعتاد، واتخذت من تدينه وتقواه وسيلة لإظهاره أمام مسلمي هذه الجهات قائدا دينيا يجمع كلمة المسلمين ويسير بهم إلى محاربة القوى المسيحية. وفعلا عاود الإمام أحمد الهجوم على البرتغاليين والأحباش لكنه هزم قرب بحيرة تانا، ومات هذا المجاهد العظيم. لكن حركة الجهاد لم تتوقف بوفاته، بل استمرت المقاومة فترة طويلة قاوم فيها المسلمون هذا المد الصليبي على ديار المسلمين [1].

وظل الصراع قائما بين المسلمين والمسيحيين في الصومال والحبشة، واتخذ شكلا صليبيا للتوسع على حساب الشعوب المجاورة، ولقد حظي إمبراطور الحبشة منليك الثاني بدعم القوى المسيحية له، فراح يتوسع على حساب جيرانه من الصوماليين. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر صار القرن الأفريقي هدفا للقوى الاستعمارية خصوصا بعد انسحاب مصر من الصومال وشرق أفريقيا، واعتبار هذه المنطقة أرضا لا صاحب لها.

بدأ التنافس بين القوى الاستعمارية من أجل تقسيم أملاك الصوماليين بين الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين. واستفاد الأحباش من عمليات التقسيم، فتوسعوا على حساب جيرانهم طبقا لقرارات مؤتمر برلين لعام 1884/1885 [2].

وفي هذه المنطقة الملتهبة بالصراعات الصليبية، وفي تلك البقعة من القارة الأفريقية يعيد التاريخ نفسه في القرن التاسع عشر بظهور شخصية الزعيم والمناضل المسلم السيد محمد عبد الله حسن الذي قاد جهاد المسلمين وجنود الموحدين ضد قوى المستعمرين من الأحباش والإيطاليين والبريطانيين، وأعاد أمجاد الشيخ الإمام أحمد بن إبراهيم أو أحمد القرين، أي الأشول. وسوف نعرض لسيرة هذا الزعيم والدور الذي قاده في مقاومة

الاستعمار الأوروبي لبلاده.

أولا- نشأة السيد / محمد عبد الله حسن

في أواخر القرن التاسع عشر كانت الطرق الصوفية قد استقرت في بلاد الصومال، وكانت الطريقة القادرية هي أكثر الطرق شيوعا وانتشارا بين سكان الصومال حتى عام 1880، وكانت الطريقة تتركز في كل من بربرة في الشمال، ومنطقة هود في الأوجادين، وكان يتزعمها الشيخ عبد الرحمن الزيلعي (المتوفى عام 1882). وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت المنافسة من طرق صوفية أخرى مثل الدندراوتية والأحمدية والرفاعية، وأخيرا الطريقة الصالحية التي صارت تنافس الطريقة القادرية [1].

وكان السيد محمد بن عبد الله حسن زعيم الجهاد الصومالي، وبطل المقاومة الصومالية ضد القوى الأجنبية من أبرز خلفاء شيخ الطريقة الصالحية ويدعى محمد بن صالح [2]

واستطاع السيد محمد عبد الله حسن بعد أن اعتنق مبادئ الطريقة الصالحية أن يكون خليفة لمؤسسها، وأن يقوم بنشرها بين سكان الصومال بدرجة أصبحت تنافس فيها الطرق الصوفية الأخرى، وفي الوقت نفسه قاد هذا الزعيم الصومالي الجهاد لنشر الطريقة في مختلف ربوع الصومال، ثم مقاومة التوسع الإمبريالي المسيحي من جانب الأحباش، والتوسع الأوروبي من جانب البريطانيين والإيطاليين. ومن ثم تفرع جهاده إلى شعبتين: إحداهما حملت الصبغة الدينية لنشر مبادئ الطريقة الصالحية، والأخرى حملت الطابع العسكري والجهاد الحربي للوقوف في وجه القوى الأوروبية. وظل هذا الشيخ يحمل السيف ويقود بلاده من نصر إلى نصر مدة عشرين عاما أو تزيد حتى انتهى كفاحه البطولي في عام 1920.

ويشبه نضال السيد محمد عبد الله حسن لتلك القوى الأوروبية جهاد زعماء المسلمين في بقاع أخرى من أرض القارة الأفريقية إن لم يكن يفوقها جميعا في مقاومته لجبهات مسيحية حبشية، وقوى أجنبية متعددة. فهو شبيه بمقاومة الأمير المراكشي محمد عبد الكريم الخطابي، والأمير عبد القادر الجزائري، والأمير السنوسي عمر المختار، وأيضا زعيم المهدية في السودان محمد أحمد المهدي الذي قاد نضال شعبه ضد القوى الاستعمارية

في الفترة نفسها التي بدأت فيها القوى الأوروبية تتوسع على حساب الأملاك المصرية التي خلت بإجبار مصر على الرحيل منها بعد عام 1885 . ونظرا لتشابه نضال هؤلاء الزعماء الأفارقة فقد عقد بعض المؤرخين مقارنة بين الزعيم الصومالي وهؤلاء الزعماء الأفارقة، بل وصفه البعض بأنه مهدي الصومال تشبها بمهدي السودان [1].

ولد الزعيم محمد بن عبد الله حسن في 17 أبريل عام 1864 بالقرب من بوهوتلي (Bohotle) في شمال الصومال، وكان جده الشيخ حسن نور من قبيلة الأوجادين قد استقر هناك وتزوج من إحدى بنات قبائل الدولباهنت، وهي العشيرة المحلية في بوهول، ولم يعرف إلا القليل عن والد السيد محمد عبد الله، لكنه كان مهتما بتعليم ابنه، وكان ينتمي إلى فرع بهجرى من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية.

أرسله والده إلى مدارس القرآن الكريم. ومنذ طفولته كان يهوى قيادة الأطفال في ساحة الألعاب الرياضية، ودخل إحدى المدارس الإسلامية في الأوجادين للتزود بالعلوم الشرعية، وما أن انتهى من حفظ القرآن حتى شارك أستاذه في تحفيظ الطلاب لهذا الكتاب الكريم، وبدأت مرحلة جديدة من حياته استهلها بالاتصال بالعلماء والشيوخ المحليين بقصد التزود بالمعارف الإسلامية والعلوم الشرعية والأدبية [1].

استطاع السيد محمد عبد الله بذكائه وسرعة استجابته أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة بين أهل الفقه ورجال الدين الذين أخذوا برأيه، ولمسوا فيه التقوى والصلاح. وكان عليه مثل غيره من شباب الصومال أن يبحث عن مهنة يمارس فيها نشاطه، ووجد في الصيد والفروسية والملاحة خير من يساعده على صقل قواه البدنية وتدريبه على مواجهة الكوارث والأزمات، والإصرار على تخطي العقبات والمشكلات [2].

وقبل أن يكمل العقد الثاني من عمره كان رصيده من علوم الدين يؤهله لحمل لقب (شيخ)، وهو اللقب الذي أعطاه حق ممارسة إلقاء الدروس الدينية في المساجد، حيث بدأ ينتقل من مركز إسلامي إلى آخر في كل من هرر ومقديشيو ونيروبي وغيرها، فالتقى بالعلماء وخالط رجال الدين، وهذا ما ساعد على صقل مواهبه، وما أن حصل على هذه الجرعة من خلال تلك الزيارات المستمرة حتى أحس بضرورة الاستقرار، فعاد إلى

بلاده حيث تزوج وهو في سن الخامسة والعشرين، وبدأ يكسب لقمة العيش من خلال ممارسة إلقاء الدروس في المساجد [1].

قدمت إليه وفود الطلاب والمريدين الذين وجدوا فيه العالم المثقف الذي يساعدهم على فهم علوم الدين، فأنسوا به، ووقفوا معه، وكانوا نواة جنوده المخلصين [2].

وفي عام 1885 قرر السيد محمد عبد الله التوجه إلى الجزيرة العربية لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وصحبه في هذه الرحلة ما لا يقل عن ثلاثة عشر رجلا من المخلصين لدعوته، ومن خيرة أصدقائه، وأتاحت له فرصة الحج التعرف على عدد كبير من الفقهاء والمشايخ حيث قابل الشيخ محمد ابن صالح الرشيدي، وانضم إلى طريقته الجديدة، وصار خليفته [3].

وفي الحجاز وقف السيد محمد عبد الله على حال المسلمين، ومحاولات الشعوب الأوروبية تقطيع أوصال الأمة الإسلامية، كما وقف على جهود رجال البعثات التبشيرية التي تسعى إلى نشر الديانة المسيحية في بلاد عرفت الإسلام منذ زمن طويل. كما أتاحت له فرصة الحج معرفة أخبار الثورة العرابية في مصر، وثورة الزعيم محمد أحمد المهدي في السودان، وكيف توحدت أهداف الثورتين من أجل استخلاص الوطن إلى أبنائه من حكم الدول الاستعمارية التي راحت تبسط سيطرتها هنا وهناك في ديار الإسلام والمسلمين.

لقد كانت كل هذه العوامل سببا في ازدياد روحه الثورية وسعيه لشن حرب جهاد ضد قوى الاستعمار الأوروبي التي بدأت هي الأخرى بالسيطرة على أرض الصومال بالإضافة إلى هدفه الأكبر في نشر الدين الإسلامي بين الشعوب التي عرفت الإسلام اسميا. ناهيك عن مقاومة النفوذ الحبشي الذي يطمع في السيطرة والتسلط على بلاده. وباختصار كانت رحلة الحج بمثابة مرحلة الإعداد لهذه المهمة الكبرى وتلك الأهداف الكبيرة والنبيلة.

وفي عام 1895 قرر العودة إلى بلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبحت صاحبة السيطرة على موانئ بربرة وبلهار وزيلع إثر انسحاب القوات المصرية منها، وعندما هبط أرض عدن أحس بمرارة العداوة للمسيحيين. وما أن التقى بأحد البريطانيين حتى طلب منه هذا الرجل

مشاهدة المظلة التي يحملها في يده، ورفض السيد محمد عبد الله الاستجابة لهذا الأجنبي، وذهب بعيدا عنه، لكن البريطاني تبعه، وحاول أن يريه المظلة بالقوة فما كمان من السيد إلا أن دفعه بيده فسقط الرجل في مياه البحر، وتجمع البريطانيون وكلهم دهشة من هذا الرجل الذي يتجرأ على ضرب أحد الأوروبيين، ولولا تدخل رجال الشرطة في عدن لدخل السيد محمد عبد الله السجن هناك.

ومنذ هذه الحادثة أدرك السيد أن التفاهم مع الأجانب أمر صعب، وأن التعامل معهم سيكون أشد صعوبة وقسوة، فازداد حقدا وكراهية لهم، واستقل الباخرة المتجهة إلى بربرة وقلبه مليء بالمرارة والأسى، فوصلها في الثاني من أغسطس 1895 حيث لقي معاملة قاسية من رجال الجمارك الذي طلبوا منه رسوما جمركية على أمتعته، فكان جوابه ومن الذي أعطاكم تصريحا بالدخول في بلادنا. [1].

واستقر الشيخ في ميناء بربرة كخليفة للشيخ عمد صالح صاحب الطريقة الصالحية، حيث قام بنشر تعاليم الطريقة، وتعليم الأهالي أصول العبادة، وانتقل من مكان إلى آخر يخطب في الناس، ويقدم لهم النصح والإرشاد، بل أقام مسجدا ليكون له مقرا ومستقرا للقاء الأتباع والمريدين. وكان لجهوده المخلصة الفضل الأكبر في نشر الطريقة الصالحية التي ازداد أتباعها يوما بعد يوم حتى صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى في بلاد الصومال. وبدأ السيد محمد عبد الله يحث الناس على الجهاد في سبيل الله ضد الأوروبيين الذين يتربصون بالإسلام والمسلمين.

وذات يوم التقى بمحض الصدفة بمجموعة من الأطفال الصغار وهم في طريقهم إلى مدارس البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة. وكانت هذه البعثة قد اتخذت لها مقرا في بربرة منذ عام 1891، وبدأت تجمع الأطفال اليتامى وتقوم بتعليمهم مبادئ المسيحية، ولما التقى بهم السيد محمد وعرف حقيقتهم، وأن البعثة تقوم بتغيير أسمائهم إلى أسماء مسيحية، ارتعدت فرائصه وقام على الفور بإرسال شكوى إلى المقيم السياسي البريطاني في بربرة يطالب فيها بإبعاد المسيحيين والمبشرين عن أرض الصومال الإسلامية. وكان مرسومه الذي أصدره في عام 1904 خير دليل على هذا الإحساس بالخطر حيث أعلن السيد محمد عبد الله في هذا المرسوم:

«حاربوا الوثنيين بالسيف، والمنافقين باللسان، ولكن نظرا لأن بلادنا في هذه الأيام قد دخلت تحت حوزة الوثنيين الذين أخذوا أموالنا، ونقلوا عنا أخبارنا، فإن حرب الوثنيين والمنافقين يجب أن يكون بحد السيف» [1].

واستطرد السيد محمد عبد الله فيحذر قومه مطالبا بعدم إطاعة المسيحيين، كما طالب بعدم تعليم الأطفال اللغات الأوروبية، وأنه لابد من تلقينهم مبادئ الدين الإسلامي، وحفظ القرآن والعلوم الشرعية. وبدأ السيد يرسم سياسته على أساس ضرورة جمع كلمة الشعب الصومالي، وتوحيد الصفوف لمواجهة العدو المشترك تحت زعامة دينية واحدة. ومنذ ذلك الوقت دخل السيد في طور جديد من حياته استهله بجمع كلمة الصوماليين على رأي واحد وتحت قيادة موحدة، وهو أمر يستوجب الدخول في منافسات وصراعات مع الزعامات القبلية والمحلية التي لا ترغب في أن يسلب منها السيد محمد عبد الله سيادتها على القبائل، أو تفقد ولاء الناس لها، ومن ثم دخل السيد في حرب داخلية مع هذه الزعامات المحلية التي حاولت القضاء على حركته، وإحباط خططه ومشروعاته، وكان عليه أن يحارب في جبهتين، وأن يوائم بين الجبهة الداخلية والخارجية، وأن يزيد من عدد أتباعه الذين يؤمنون بقضية الجهاد، وأن ينشر تعاليم الطريقة الصالحية على نطاق واسع، وبشكل أعم حتى يقف أمام منافسة الطرق الصوفية الأخرى. لكل هذا أصبح جهاد السيد محمد عبد الله حسن نوعا جديدا من الصراع، كما أن حركته تمثل نمطا من أنماط المقاومة ضد الاستعمار والقوى المحلية الإسلامية والوثنية والمسيحية [1].

بدأ السيد محمد عبد الله حملة ضد الأعمال المنافية للشريعة الإسلامية فطالب بإلغاء استيراد الخمور إلى بلاده، كما طالب بعدم إرسال الأطفال إلى المدارس المسيحية، وجاءت حادثة عارضة لتزيد من اشتعال الموقف الذي أوشك على الانفجار، تلك هي حادثة القس الذي كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة، وكان الأذان يؤرق مضجعة. فقام بإطلاق النار على المؤذن فأشعل بذلك نار الحقد عند المسلمين، وبدأت طلائع الجيش الثوري ضد الأوروبيين، وظهرت حركة مقاومة رجال التبشير والمبشرين. وقام المسلمون بهدم المركز التبشيري في ديمول (Demoil) ولاحقوا القسيس في محاولة الفتك به، وتحطيم كل المراكز التبشيرية. وكان حادث القسيس قد

ترك أثرا عميقا في نفوس الناس وفي نفس السيد محمد عبد الله الذي أدرك أنه لابد من الصراع معهم، وإنقاذ ديار الإسلام والمسلمين من تسلط الكفار والوثنيين [2].

ولما ازداد الموقف اشتعالا اضطرت الحكومة البريطانية إلى طرد المبشرين. وفعلا قامت بترحيلهم على ظهر باخرة إلى عدن، وتعهدت هذه السلطات البريطانية بعدم السماح لهم بالعودة إلى الصومال، ومنع بناء الكنائس في البلاد، وعدم فتح محلات لبيع الخمور[1].

وجاءت حادثة أخرى جعلت السيد محمد عبد الله حسن يعلن الجهاد، ذلك أنه في 19 مارس عام 1899 هرب أحد رجال الشرطة ويدعى هيرس من بربرة إلى السيد محمد حاملا مسدسه، ولم يعرف السيد ما إذا كان الجندي قد اشتراه أم لا. وما أن سمع القنصل البريطاني في بربرة بتلك الحادثة حتى أرسل إلى السيد محمد عبد الله يطلب منه إعادة المسدس، فكان رد السيد قائلا: أيها الرجل إنني لم أسرق منك شيئا خذ ما تريد من الذي سرقك، وأعبد أي إله اخترته لعبادتك، والسلام [2].

وفي أول ديسمبر 1899 تلقى القنصل البريطاني في الساحل رسالة من السيد محمد عبد الله يتهم فيها البريطانيين بالإساءة إلى الإسلام، ويحتقر كل من يتعاون مع الإدارة البريطانية، وطلب من الإنجليز دفع الجزية إذا رغبوا في السلام، وكان رد القنصل على هذا الخطاب بأن السيد محمد عبد الله من الثوار، وحث حكومته على إعداد حملة كبيرة ضد الدراويش. ومن هنا بدأت حركة من المقاومة والصراع بين المسلمين والبريطانيين.

خرج السيد محمد عبد الله من بربرة واتجه إلى نوجال حيث قام بشراء عدد من البنادق الفرنسية، واستقر به المقام في مسقط رأسه حيث أقام مسجدا وبدأ يعلم الطريقة الصالحية، ولكن في مارس عام 1900 حضر بعض الجنود الأحباش من هرر بقصد جمع الضرائب من السكان الصوماليين في منطقة أوجادين فما كان من أتباع السيد محمد عبد الله إلا أن شنوا هجوما عنيفا عليهم وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة واستولوا على عدد كبير من الأسلاب. ولقد اختلفت تقديرات هذا الهجوم على جكجكة حيث وصف قائد الجيش ويدعى جيرازماتشي باني هذه المعركة فيقول:

«في الساعة الثامنة وصلت قوات العدو أمام القلعة، وكانوا كثيري العدد ولم تستمر المعركة أكثر من خمس دقائق قبل هروبهم وخلفهم جنودنا الذين دمروهم» [1].

لكن التقارير الأخرى تشير إلى أن قوات السيد محمد عبد الله قد اقتحمت مواقع الأحباش التي كانت ترتعد من القوات الصومالية التي فضلت الموت على الحياة. ولكن مهما اختلفت الروايات على حادث الهجوم الصومالي فإن الذي يفيد في هذا المقام أن تلك الحادثة وجرأة الهجوم الصومالي على الأحباش تعتبران حدثا فريدا لم يسبق أن واجهه جيش الأحباش، وكانت هذه الواقعة بداية تحالف بين الإمبراطور منليك والبريطانيين من أجل ضرب تلك الحركة الناشئة قبل أن يستفحل أمرها بزعامة الشيخ الصومالي.

كان هذا التحالف بداية مرحلة جديدة من الصراع بين السيد محمد عبد الله والقوى الأوروبية، واعتبر الشيخ تحالف الأحباش مع العناصر الأوروبية بمثابة إعلان الحرب على المسلمين، وبالتالي أحس السيد أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد المقدس، وفي خطاب عام طالب السيد محمد بحمل السلاح والإيمان بالله عز وجل، والصبر على الشدائد، وتدريب النفس على الجهاد في سبيل الله والدين والعقيدة [2].

ومن هنا تبدأ حركة جهاد السيد محمد عبد الله حسن ضد القوى الأوروبية. وهكذا صار السيد قائدا سياسيا وزعيما دينيا في منطقة الأوجادين، واستطاع أن يخضع القبائل المجاورة لزعامته، وأدركت سلطات المحمية أنه لابد من اتخاذ إجراء حاسم وسريع ضد هذا المجاهد لأنه لو استمر على هذا المنوال فإن القبائل الموالية للبريطانيين ستضطر في النهاية إلى الاتفاق معه أو الموت جوعا بسبب الحصار. كل هذا جعل العمل المشترك بين الإمبراطور الحبشي والكولونيل البريطاني سواين (Swayne) أمرا محتما. ومن هذا المنطلق نبعت فكرة إرسال الحملات البريطانية ضد هذا الملا المجذوب حسب زعمهم وهو ما سنعالجه بشكل مفصل.

ثانيا: صراع السيد محمد عبد الله ضد البريطانيين

بات واضحا أن الصدام بين البريطانيين والأحباش من جهة، وقوات

السيد محمد عبد الله حسن من جهة أخرى قد صار أمرا محتما، ولذا فإن بريطانيا أعلنت عن إرسال الحملات العسكرية ضد القوى الإسلامية، وأسندت القيادة إلى الكولونيل سواين (Swyane)، كما جهزت الحبشة جيشا ضخما بلغ عدد أفراده حوالي خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية السيد همفري تراس التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين.

وكانت المهمة التي كلفت بها القوات الحبشية هي قطع خطوط الإمدادات عن الدراويش إذا حاولوا الاتصال بالقوات الصومالية الأخرى في أراضي جوبا، أو عندما يقدم شعب الأوجادين المساعدات لهم، كما تم تكليف إيطاليا بالضغط على سلطان ميجرتين لمنع وصول أي مساعدات للسيد محمد عبد الله، وأيضا لمنعه من الهروب للساحل، وبالتالي يمكن الإطباق عليه من كل جانب في عملية واحدة [1].

لكن قائد الجهاد الإسلامي عرف بكل تفاصيل هذه الخطة الأوروبية، فقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية وذلك في أوائل يناير عام 1900. وبعد ذلك بدأت الاشتباكات بين الطرفين وأظهر المسلمون شجاعة نادرة ورغبة صادقة في الاستشهاد في سبيل الله والوطن، فلقد واصل المجاهدون الحرب على مدى ثلاثة أشهر مما أجبر قوى البغي والعدوان على العودة إلى قواعدها بعد أن تعلمت دروسا كبيرة في النضال والكفاح والصمود، ولقد اكتفت الحكومة البريطانية بعد انسحابها بوضع فرقة عسكرية في برعو، وكانت معها بعض المدافع الرشاشة، كما كونت فرقة من الميليشيات من أجل التنقل والحركة السريعة. حدث كل هذا في الوقت الذي دعم فيه السيد محمد عبد الله قواته، واحتل بعض المواقع المتقدمة، وهو الأمر الذي جعل الحكومة البريطانية تفكر في إرسال حملة ثانية ضد المجاهدين الصوماليين [1].

عهدت الحكومة البريطانية بمسؤولية الحملة الثانية إلى الكابتن سواين، واتصلت بالكابتن كوردو القائم بأعمال القنصل العام لإعلامه بالحملة الجديدة التي توجه ضد السيد محمد عبد الله حسن لما يسببه من إزعاج للسلطات البريطانية. وتحرك سواين في 26 مايو عام 1902 ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الأفريقية بقيادة الكابتن أسبورن مع عدد من

الصوماليين يقدر بحوالي خمسمائة فارس بقيادة موسى فارح من هود. وأما قوات المجاهدين فقد تمركزت في إقليم بارن وتقدر بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل، واتجهت هذه القوة قبل الاشتباكات نحو الجنوب، ووصل سواين إلى بوهوتلي، وأقام بعض الحصون هناك لحماية آبار المياه ومخازن التموين، واستقر أخيرا في أريجو شمال منطقة مدق [2](Mudug).

وفي 20 يوليه عام 1902 بدأت القوات البريطانية هجومها على جيروى (Gherouey) بهدف تطهير ساحل الصومال من الدراويش، ومع نهاية أغسطس وصلت القوات البريطانية إلى جاعولو [3](Gaolo).



شكل رقم (13)

وفي ذلك الوقت كانت قوات الدراويش قد اشتبكت مع قوات السلطان علي يوسف سلطان هوبيا، ونجحت قوات الدراويش في إيقاع الهزيمة بقوات هذا السلطان، واضطر سواين إلى مساندة هذا السلطان، فطلب إمدادات جديدة، وقام بالهجوم على قوات الدراويش في أريجو في السادس من أكتوبر. وفقد الدراويش عددا من رجالهم لكنهم كبدوا البريطانيين خسائر فادحة، وأمكن قتل ما لا يقل عن مائة جندي من البريطانيين، بالإضافة إلى ما حصلوا عليه من أسلاب وأمتعة.

وبعد هذه المعركة اقتنع السيد محمد عبد الله بضرورة التحول إلى استخدام الأسلحة الحديثة، وضرورة تدريب قواته على النظم الحربية الحديثة حتى يواجه الموقف الجديد، ولذا فقد فضل الانتقال بقواته إلى جالادى على الحدود الإيطالية، كما قرر الدخول في حلف مع السلطان محمد عثمان سلطان ميجرتين. وقدم إليه السيد محمد عبد الله بعض الاقتراحات بشأن الحصول على أسلحة من الساحل. وقد انتهز السيد محمد هذه الفرصة بعد رحيل القوات البريطانية، وبدأ يعيد تنظيم قواته وتزويدها بأحدث الأسلحة استعدادا لمرحلة قادمة مع قوات بريطانيا التي تنوي القضاء على هذا الثائر المسلم رغم فشلها في المحاولتين السابقتين. وكانت كل البوادر تشير في هذه الفترة إلى أن بريطانيا ترتب الأمور لحملة ثالثة ضد قوات المجاهدين المسلمين بقيادة الجنرالماننج.

ونتيجة فشل الحملتين السابقتين فقد رأت بريطانيا أن تستعين بإيطاليا للقيام بعمل مشترك ضد السيد محمد، ودارت مباحثات عسكرية بين الدولتين أسفرت عن تبادل مذكرات رسمية في 16 ديسمبر عام 1952، ووافقت الحكومة الإيطالية على قيام قوات بريطانية من ميناء هوبيا، كما طالبت بريطانيا الحبشة مرة ثانية بقطع الطريق أمام زعيم الجهاد إذا انسحب غربا، كما طالبت بريطانيا أحد رجالها بإجراء الاتصالات المناسبة لاشتراك الحبشة بشكل مباشر في هذه الحملة. ولقد أسفرت كل هذه الجهود عن موافقة الإمبراطور منليك على الاشتراك بخمسة آلاف مقاتل تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة [1]. وكانت الخطة البريطانية تهدف في المقام الأول إلى احتلال واحة مدق التي خرجت منها غزوات السيد محمد عبد الله ضد المحمية البريطانية، وأن يحتل جيش الأحباش وادي

نوج فافان لكي يقطع على المجاهدين احتمالات الانسحاب إلى المحمية الإيطالية. لكن خوفا من وقوع القوة البريطانية تحت رحمة قوات الدراويش فقد صدرت الأوامر إلى القائد مانتج بإخراج السيد محمد عبد الله فقط من واحة مدق وعدم تعقبه في الداخل حتى لا تبتعد القوات عن مواقعها، ويصعب إرسال قوات إضافية لنجدتها عند الضرورة [2].

وبدأت الاشتباكات بين الطرفين بعد وصول القوات البريطانية إلى جاعولو في 15 مارس عام 1903، لكن المجاهد الصومالي انسحب من الموقع، واتجه إلى والوال حيث دارت معركة جمبورو هل (Gumburu Hill) في 17 أبريل، وتمكنت قوات المجاهدين من إنزال الهزائم بالقوات البريطانية، كما قتلت قائد هذه القوة، وبلغت خسائر البريطانيين حوالي تسعة وتسعين قتيلا من البريطانيين، و187 قتيلا من حلفائهم وحوالي تسعة وعشرين جريحا [3]. ويصور أحد شهود العيان هذه المعركة فيقول: إنه عندما اقتربت قوات العدو قسم السيد محمد جيشه إلى أربعة أقسام، ووضع كل قسم في منطقة مستقلة، وبعد فترة جاء الجيش البريطاني إلى جبل صغير. وفي 17 أبريل بدأت المواجهة بين قوات الطرفين. ووقف القائد البريطاني خلف قواته حتى لا تفكر في الهرب أو الانسحاب. وكانت عادة الدراويش ألا يتوقفوا عن الهجوم إلا بعد اختراق صفوف العدو على أمل الاستشهاد في سبيل الله، وقد استمرت المعركة منذ السادسة صباحا حتى الرابعة مساء انتصر الدراويش في نهاية اللقاء للمرة الثالثة، وأجبروا البريطانيين وحلفاءهم على الانسحاب مخلفين وراءهم جثث الجرحى والقتلى والعتاد والأسلحة. وينهي شاهد العيان حديثه بالقول: إنه من الصعب حصر عدد القتلى لأن الدماء كانت تسيل كأنها داخل بحيرة من الدماء لأن عددا كبيرا من الدراويش قد لقي حتفه أيضا في هذه المعركة [1].

وحدث لقاء بين قوات الدراويش والقوة البريطانية في درتوله، ومع القوات الحبشية بورهيلى وأجبرتها على العودة إلى هرر [2]. وهكذا استطاعت قوات الدراويش أن تمنع الاتصال بين قوات المتحالفين من هوبيا وبربرة والحبشة، وبالتالي باءت الحملة الثالثة بالفشل، ولم تستطع تحقيق هدفها في القضاء على الزعيم المسلم أو أسره. لقد كان هدف هذه الحملة الثالثة هو وضع شيخ المجاهدين في الهواء المكشوف حيث لا توجد مياه في

تلك المنطقة الحارة، لكنهم فشلوا في الإيقاع بقوات الجهاد وكان الانهزام حليفهم، واضطرت القوة البريطانية إلى الانسحاب في النهاية إلى الصومال البريطاني [3].

وأمام هذا الفشل الذريع في القضاء على قوات الجهاد الإسلامي قررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال ايجرتون (Egarton) مع دعمه بقوات إضافية من المستعمرات البريطانية، وذلك على أمل القضاء النهائي على قوات الزعيم الصومالي.

حدث هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه الروح المعنوية لدى المجاهدين وتحولت من موقف المدافع إلى الهجوم، وازداد عدد الذين انضموا إلى قوات المجاهدين. وكتب السيد محمد عبد الله خطابا إلى الشعب البريطاني تضمن رغبته في حكم بلاده، وحماية دينه، وأكد أنه يحارب من أجل العقيدة، وأن الله يحارب معه، وأنهى خطابه بأنهم إذا رغبوا في الحرب فهو سعيد بهذا، وإذا أرادوا السلام فهو أيضا سعيد، وطالبهم (ذا أرادوا السلام بأن يخرجوا من بلاده [1].

ورغم عروض السلام التي أبداها زعيم الجهاد الإسلامي في الصومال إلا أن الحكومة البريطانية رأت ألا ترضخ لهذه المطالب، وأنها لا بد من أن تلقن هذا الثائر درسا قد يكلفه حياته كلها، ولذا فإنه في 27 يونيه عام 1903 أبحر الجنرال ايجرتون من بومباي ليتولى قيادة الحملة الرابعة التي هدفها الأساسي أسر الزعيم المسلم أو قتله والقضاء على قواته، وغسل عار هزيمة القوات البريطانية في حملاتها الثلاث السابقة.

وضع هذا القائد البريطاني خطة استفاد فيها من الحملات السابقة للقضاء على المجاهد الصومالي، وتتلخص هذه الخطة في احتلال كل آبار المياه من منطقة هوبيا إلى جيرلوجوبى (Gerloguby) مع قطع كل طرق مواصلات قائد الجهاد إذا رغب في الهروب إلى ميجرتين شرقا أو أوجادين غربا، هذا إلى جانب احتلال إقليم مدق مصدر قوة المجاهدين [2].

وطلبت الحكومة البريطانية من الإمبراطور منليك المشاركة في هذه الحملة، وتعهدت بدفع مبلغ خمسة عشر ألفا من الجنيهات الإسترلينية لكي يتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وقد وعد الإمبراطور بإرسال جيش من أربعة آلاف جندي مسلح بقيادة فيتورارى جابرى [3].

وفي 19 ديسمبر عام 1903 بدأت الاشتباكات مع قوات الدراويش في جدبالة. وبعد معركة دامت ثلاث ساعات انسحب القائد البريطاني كينا (Kenna) إلى بدوين. وفي أول يناير عام 1904 تجمعت قوات كل من مانج وفاسكن وايجرتون في شمال بدوين، واتجهت هذه القوات جميعا إلى جدبالة حيث بدأت مهاجمة القوات الوطنية الصومالية، واستمرت تلك المعركة يوما كاملا تعرض فيه الدراويش لهزيمة قاسية حيث قتل منهم ما لا يقل عن ألف شخص، كما فقدت بريطانيا عددا من قواتها. وهذه أول معركة تنتصر فيها بريطانيا على قوات الدراويش، إلا أن الهدف الذي شن ايجرتون من أجله الهجوم وهو أسر السيد محمد عبد الله حسن لم يتحقق.

وبعد هذه المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على السيد محمد التنازل له عن أجزاء من المحميتين البريطانية والإيطالية، والاعتراف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وعلى أن يودع مبلغا من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيره وسلوكه في المستقبل، ولكن السيد محمد عبد الله رفض أن يسلم أحد أبنائه كرهينة أو نزع سلاح أتباعه [1].

وفي تلك الفترة اقترح السير أرنولد فرستر على اللورد لانسدون الاتصال بالجنرال ايجرتون لمعارضة هذه الشروط لأنها غير كافية، وأحس السيد محمد عبد الله بخطورة الموقف فطلب من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته إلى سهل دارود لتغذية الحيوانات. وكان السلطان على وشك عقد اتفاق مع السيد محمد عبد الله لكنه لم يتمكن من إجابة طلب الدراويش بسبب إنذار الإنجليز إياه باحتلال بلاده إذا تعاون مع الدراويش، وإزاء هذا الموقف اتجه السيد محمد عبد الله إلى الساحل حيث منطقة أليج لأن البحر سيكون أمامه ويمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، وحيث توجد المياه العذبة من خلفه، واستقر السيد محمد في هذه المنطقة، وبدأ يقيم الحصون والقلاع لحماية قواته ودوابه من الهجوم سواء من الداخل أو من ناحية البحر. ففي برقية من السير ايجرتون في أول فبراير عام 1904 أفاد بأن الملا (السيد محمد عبد الله) ربما يحاول اللجوء ناحية الشمال، وبالتالي يحصل على مساعدات كبيرة، ولذا لا بد من اتخاذ إجراءات فعاله ضده من خلال القبائل في

المحمية الشمالية [1].

ولذا فإنه بمجرد أن علم ايجرتون بالتحصينات التي يقيمها السيد محمد عبد الله في أليج حتى قرر تحطيمها بحملة عسكرية، ولهذا الغرض تحرك الأسطول البريطاني أمام مياه أليج ونزلت قوة بريطانية في مياه الميناء في 31 مارس 1904 بعد الاتفاق مع الحكومة الإيطالية [2].

ولما شعر السيد محمد عبد الله بهذه الاستعدادات بدأ يتجه بقواته نحو قلعة جاريسا (Garesa). وفي 21 أبريل عام 1904 قرر ايجرتون ضرب القلعة، ودافع الدراويش بكل بسالة وإقدام. وبعد معارك دامية سقط هذا الحصن في أيدي القوات البريطانية، ورفع العلمان البريطاني والإيطالي عليه. لكن رغم هذا فقد انتهت هذه الحملة دون أن تحقق أهدافها شأن الحملات السابقة، وتكبد البريطانيون الخسائر التي بلغت حوالي ثمانية ضباط قتلى، وعشرين من صف الضباط الوطنيين0 و16 صوماليا غير نظامي. أما خسائر الدراويش فكانت أشد من الحملات السابقة نتيجة تحالف الإيطاليين مع البريطانيين حيث بلغت حوالي ألفي قتيل، كما أسر منهم حوالي 304 رجال، واستولى البريطانيون على 473 مسدسا وبندقيتين، وحوالي 24376 عيارا ناريا، و223 حصانا، و36415 من الماشية والماعز. لكن بريطانيا مقابل هذه المكاسب قد تحملت حوالي خمسة ملايين جنيه إسترليني كتكاليف لهذه الحملة بالإضافة إلى خسارتها في الأرواح والمعدات الحربية [3].

ويلاحظ أن هذه الأرقام عن الخسائر لكلا الطرفين غير دقيقة، وفيها الكثير من المبالغة حول خسائر الدراويش، ولكن الذي يهمنا في هذا المقام هو أن خسائر السيد محمد عبد الله هذه المرة كانت تفوق الخسائر السابقة، وكانت سببا في ضياع جزء كبير من قياداته ومؤنه، وهو الأمر الذي جعله يميل إلى ناحية السلام والمهادنة بعض الوقت حتى يسترد الأنفاس، ويستعد لمرحلة جديدة من الكفاح والنضال ضد قوى الاستعمار والإمبريالية.

لكن رغم كل هذه الخسائر في قوات السيد محمد عبد الله إلا أن بريطانيا فشلت في تحقيق الهدف الكبير نحو القضاء على هذا الثائر الصومالي. وكانت خسائر الطرفين دافعا لأن يقبل السيد محمد عبد الله الرغبة في السلام، وقبول وساطة إيطاليا لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش، وهو ما أطلق عليه اتفاق بستالوزا وذلك في عام 1905 [1].

ثالثا: مفاوضات السلام مع السيد محمد عبد الله

باءت جميع المحاولات البريطانية ضد زعيم المجاهدين في الصومال بالفشل على طول الحملات المستمرة برغم الاستعانة بالقوات المحلية والقوى الداخلية ممثلة في الأحباش وقوى حليفتها إيطاليا. ورغم ما أصاب المجاهدين من خسائر مع تضييق الخناق على تحركاتهم إلا أن الجهاد اتخذ شكلا أشد صلابة وأكثر مناعة، وارتفعت مكانة الزعيم بين ذويه ومواطنيه، وصار بحق بطل القومية الذي يدافع عن الدين والوطن أمام تكالب المستعمرين، وأطماع الأحباش المسيحيين. لكن الزعيم كان في حاجة إلى فترة من الوقت يسترد فيها أنفاسه، وشيد بناء قواته، وما أن تدخلت إيطاليا في محاولة لعقد اتفاق سلام بين الطرفين المتحاربين حتى أعلن السيد محمد عبد الله حسن عن رغبته في عقد الصلح، واستجابت الحكومة البريطانية لهذا المسعى الإيطالي.

وقبل أن نحلل هذا الاتفاق بين الطرفين يدور التساؤل حول السبب في قيام إيطاليا بدور الوسيط في مباحثات السلام وهي طرف في هذا الصراع وحليف للبريطانيين.

لعل الإجابة عن هذا السؤال تكشف تلك الروح الاستعمارية تجاه المجاهد الإسلامي، ويمكن أن نحدد أهداف إيطاليا من وراء هذه المساعي في النقاط الآتية:

أولا: إحساس إيطاليا بعجز البريطانيين عن قمع حركة الجهاد بعد ازدياد نفوذ السيد محمد عبد الله، وتجمع القبائل الصومالية خلفه، وهو الأمر الذي جعله بطلا قوميا تمتد أهدافه وآماله نحو أمة صومالية واحدة، قد تتعرض إيطاليا بسبب هذه الأيديولوجية القومية إلى هجوم من رجال الجهاد على المناطق التي بدأت إيطاليا تستقر فيها على أرض الصومال.

ثانيا: لاحظت إيطاليا خلال حملات البريطانيين ضد السيد محمد عبد الله أن مناطق نفوذها قد صارت مسرحا لبعض العمليات العسكرية بين قوات الطرفين، وأن قوات المجاهدين تعاود الكر والفر في مناطق المحمية الإيطالية، وبالتالي وقوفها عاجزة عن الذود عن محميتها.

ثالثا: إدراك الإيطاليين أن بريطانيا ربما تفكر في الانسحاب إلى الساحل تاركة الداخل لجهود المناضلين المسلمين، وبالتالي تصبح إيطاليا هدفا أمام

قوات الدراويش التي تزداد قوة يوما بعد يوم في الوقت الذي تعجز قواتها في المحمية عن صد هذا الهجوم الذي دوّخ البريطانيين طوال أربع حملات.

رابعا: محاولة إيطاليا الاستفادة من جهود هذا الزعيم المسلم واستخدامه كوسيلة لإخضاع سلطنتي هوبيا وميجرتين اللتين تقعان في مناطق نفوذها. لكنهما تتمتعان باستقلال داخلي، وكانت إيطاليا تأمل في أن تستفيد من الزعيم الصومالي في الحد من نفوذهما.

خامسا: رغبة إيطاليا في أن تؤمّن جانبها من وراء هذا الصلح. حتى تتفرغ للتوغل في الداخل لفرض سيطرتها، وتوسيع مجال عملياتها في محاولة للسيطرة على الجزء الأكبر من الصومال، ولن تتحقق هذه الأماني إلا بعد عقد صلح مع زعيم الجهاد الإسلامي في الصومال.

وباختصار رأت إيطاليا في هذا الصلح بداية مرحلة جديدة من توسعاتها في القرن الأفريقي خصوصا بعد أن قامت بريطانيا في عام 1905 بتعديل بنود الاتفاقية التي عقدت بينها وبين سلطان زنجبار، وصار ساحل بنادر تابعا لإيطاليا بشكل نهائي بعد أن كان مؤجرا من قبل. فأعطاها هذا الأمل في التوسع وربط مستعمراتها وإخضاع قبائل الصومال الثائرة، ولن يتأتى ذلك في ظل ثورة إسلامية يقودها السيد محمد عبد الله حسن.

من أجل هذه الأسباب بدأت إيطاليا عن طريق ممثليها في الصومال اتصالات سرية مع السيد محمد عبد الله على أمل الوصول إلى اتفاق معه، وعلى أساس التوصل إلى تفاهم مع السيد محمد عبد الله سواء شارك حلفاؤها من البريطانيين أو الأحباش أم لا، وبدأت إيطاليا تعرض عليه كافة المساعدات في مختلف المجالات حتى تنال رضاه، وتحصل على اتفاق يحقق لها ما ترنو إليه. وأدرك محمد هذه المساعي الحثيثة، وتلك المحاولات الملحّة من جانب الإيطاليين أعداء الدين فتعمد التباطؤ في الرد عليهم حتى يكون في موقف الند للند بعد أن يكون قد جمع قواه، وأعاد الجيش إلى حالة من الاستعداد والقوة [(1)].

وما أن وقف المجاهد الإسلامي على أرض صلبة حتى بدأ يستجيب لدواعي الإيطاليين، فأرسل أحد الأنصار ويدعى عبد الله شجارى إلى ممثل إيطاليا في أرتيريا لمعرفة أهداف الصلح وإمكاناته، وبعد اللقاء مع الإيطاليين علم مندوب السيد محمد عبد الله أن الاتفاق يمكن أن يكون

عاما، وشاملا لكل من الإيطاليين والأحباش والبريطانيين.

وأرسلت إيطاليا قائد السفينة الحربية السنيور بلاتي بيبرى لإجراء المباحثات التمهيدية، وأرسل هذا السنيور خطابا إلى زعيم الجهاد أعلن فيه عن رغبة الدول الثلاث في عقد هدنة عامة بعد إيقاف القتال على كافة الجبهات [1]. ولما وجدت الحكومة الإيطالية استجابة من شيخ الدراويش لعقد الصلح قامت بتعيين جوليو بستالوزا (Guilio Pestalza) رئيسا لوفد المفاوضات بعد أن أخذت رأي الحكومة البريطانية التي وافقت على إجراء الصلح بشروط تتضمن:

أولا: عدم تدخل السيد محمد عبد الله حسن في شؤون القبائل الصومالية التي تحت الحماية البريطانية.

ثانيا: عدم شراء الدراويش السلاح أو تقوية الجيش.

ثالثا: تحديد أماكن الدراويش في نطاق إقليم معين.

رابعا: أن يرفع الحصار المفروض على السيد محمد عبد الله ويسمح له باستيراد كل شيء ماعدا السلاح.

ولما أحست إيطاليا أن هذه الشروط يمكن أن تعرقل المباحثات اتفقت مع بريطانيا على أساس التفاوض نيابة عنها في هذا المجال، وعلى هذا الأساس سافر بستالوزا لمقابلة السيد محمد عبد الله في أليج، ووصل بستالوزا إلى بندر قاسم، وأرسل لقائد الدراويش رسالة في 12 سبتمبر عام 1904 أخبره فيها بأنه رسول الحكومة الإيطالية المكلف بإجراء الصلح معه، وطلب منه شروطه للصلح حتى يتسنى عرضها على حكومته.

ورد السيد محمد عبد الله حسن مبديا رغبته في الصلح، وأظهر حسن الاستعداد للترحيب به وبمن يرغب من البريطانيين في تقديم مقترحات الصلح، وعلى هذا وصلت سفينة إيطالية إلى ثغر أليج في 15 أكتوبر. وفي اليوم التالي بدأت المفاوضات الرسمية وسط استعراض عسكري أقامه السيد محمد عبد الله من فرقة الفرسان والمشاة حملة الرماح والدروع، وكان لهذا العرض مغزاه العسكري حيث حاول السيد محمد عبد الله أن يشعر الإيطاليين وحلفاءهم بأنه يفاوض من مركز القوة. وأن قواته العسكرية ما زالت قادرة على تحقيق ما تعجز المفاوضات السلمية عن إنجازه [1]

وكان لهذا العرض أيضا مغزاه لدى السيد محمد عبد الله حيث وافق

بستالوزا على الكثير من مطالب السيد التي حددها بأربع نقاط:

(1أن تحدد له إقامة دائمة في منطقة النفوذ الإيطالي بين رأس جاراد ورأس جابي.

(2 أن يتولى حكم أتباعه بنفسه.

3) حرية التجارة مع شعوب المنطقة والساحل باستثناء تجارة السلاح.

(4 أن يتمتع هو وأتباعه بالحرية الدينية [2].

وقام السيد بستالوزا بعرض هذه المقترحات على الأطرف المعنية وعلى سلطان هوبيا وسلطان ميجرتين، وحكومة لندن التي اتصلت بدورها بالكولونيل سواين للقاء بستالوزا في عدن، وتم اللقاء في 14 و15 من نوفمبر عام 1904 حيث وافقت بريطانيا على شروط السيد محمد عبد الله. وعاد بستالوزا إلى أليج والتقى بالسيد محمد عبد الله في 5 مارس عام 1905 لتوقيع الاتفاق الذي نص على البنود آلاتية:

أولا: عقد صلح وسلام بين السيد محمد عبد الله وحكومات كل من إيطاليا وإنجلترا والحبشة.

ثانيا: أن يكون مقر السيد محمد عبد الله في الإقليم الإيطالي في نوجال وفي البقعة بين سلطنتي هوبيا وميجرتين، كما ترسو سفنه على الساحل بين رأس جاراد ورأس جابي.

ثالثا: أن يتولى السيد محمد الله حكم أتباعه وله حرية التجارة الكاملة ماعدا الاتجار بالسلاح أو الرقيق.

رابعا: تنازل الدراويش لسلطان هوبيا عن جميع أراضي مدق وجالكعيو.

خامسا: إبلاغ الدراويش للحكومة الإيطالية بكل الأمور التي تعرض أمنهم للخطر.

سادسا: تشكيل لجنة لتنفيذ بنود هذا الاتفاق من جميع الأطراف المشتركة في المعاهدة.

وإذا استعرضنا ما تم الاتفاق عليه نهائيا، وما قدمه السيد محمد عبد الله من نقاط للسيد بستالوزا لوجدنا أن بنود الاتفاق قد احتوت على كل المطالب التي أرادها السيد محمد عبد الله، وبالتالي فالاتفاق قد حقق ما يتمناه السيد من فترة السلام والأمان التي كان يسعى إليها من وراء هذا الاتفاق.

وبهذا الاتفاق الذي وافقت عليه بريطانيا في 26 مايو عام 1905 تبدأ مرحلة جديدة من كفاح المسلمين ضد هذه القوى، خصوصا وأن الأوروبيين قد وقعوا المعاهدة الثلاثية بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا في ديسمبر عام 1906 لتحديد مناطق نفوذ كل منهم بعد رحيل الإمبراطور منليك، وحتى تظل منطقة الحبشة متماسكة وموحدة بعيدة عن التنافس الاستعماري [1].

وهكذا قبل السيد محمد عبد الله أن يظل في سلام مع إيطاليا وبريطانيا والحبشة، وأن يقبل الحماية الإيطالية لأنه استقر في المنطقة بين سلطنة الميجرتين وهوبيا في الجنوب، ورغم أنه ترك محمية الصومال البريطاني حسب الاتفاق بين الحكومتين الإنجليزية والإيطالية إلا أن الدراويش حصلوا على منطقة لرعي الماشية داخل المحمية بين أبار حالين (Halin) وهودين (Hudin) وتوجال (Togale) وتوناد. (2)(Tonad).

ولن نخوض في تفاصيل وتحاليل نتائج هذا الاتفاق لأن ما يعنينا هو دراسة آثار هذا الاتفاق على حركة الجهاد وما إذا كانت قد حققت السلام المنشود بين زعيم مسلم يدافع عن شرف دينه وأرضه وسط القوى الأوروبية والحبشية التي تتربص به من كل جانب [1]. ومما لا شك فيه أن السيد محمد عبد الله قد استفاد من هذا الاتفاق فائدة جمة حيث كان السيد في أمسّ الحاجة إلى فترة من الراحة يسترد فيها أنفاسه، ويستعيد بناء قوته التي كانت على وشك الانهيار أمام الحملات المتلاحقة من البريطانيين وحلفائهم. وجاءت الفائدة الكبرى عندما بدأت الأسلحة تتدفق عليه عبر المستعمرة الإيطالية، وانتعشت تجارته، وصار ميناء أليج مفتوحا أمامه، كما انفتح الساحل من رأس أرسانجالى وميناء أليج أمام رجاله دون معارضة من السلطات الإيطالية.

واستقر السيد محمد عبد الله في المنطقة التي خصصت له. وتعلم رجاله الزراعة بدلا من الرعي، وقاموا بتصدير المنتجات الزراعية من ميناء أليج المفتوح أمامهم، وظل السيد يحافظ على هذا الاتفاق الذي أعطاه الفرصة لإعادة بناء قواته وتحصيناته داخل المنطقة الإيطالية، واستمر السلام قائما بين الطرفين حتى عام 1908، والسيد محمد يحترم نصوص الاتفاق ويستغل الفرصة لإعادة بناء القوات، وكان يساعده عدد كبير من الجواسيس والوكلاء في المحمية البريطانية الذين كانوا ينقلون إليه الأخبار

عن تحركات القوى المعادية، وفي الوقت نفسه كانوا يعملون على جذب القبائل والعشائر إلى صف السيد محمد عبد الله. وباختصار استفاد الدراويش من هذا الاتفاق استفادة كبيرة استردوا فيها أنفاسهم، واستعدوا لمرحلة جديدة من الجهاد والنضال.

وعلى الجانب الآخر كانت بريطانيا تحاول الحفاظ على الاتفاق وشروطه، لكنها دأبت على تكوين المليشيات العسكرية والقبلية من أجل الوقيعة بين الصوماليين بعضهم وبعض. ولما أحس السيد عبد الله بتلك المحاولات التي تدعو للفرقة والوقيعة بين أبناء الشعب الواحد اتصل بالسيد كوردو (Cordou) مساعد القنصل البريطاني في عدن، وأخبره برغبته في استمرار السلام، كما حذره من أن البريطانيين يحرضون القبائل الموالية لهم على الاعتداء على الدراويش، بالإضافة إلى محاولات تشويه العلاقات بين الإيطاليين والأحباش وبين الدراويش. [1].

وكان تضييق الخناق على الدراويش قد ترك أثرا عميقا في نفوس أتباع السيد محمد عبد الله لدرجة أن أقرب الناس إليه مثل والده وأولاده وأعمامه ومستشاره نور أحمد عمر، والشيخ عبد الله سلطان أوجادين طلبوا منه الخروج من نوجال واستئناف الجهاد ضد المسيحيين خصوصا وأن عدد الأتباع قد زاد بشكل كبير. وكان موقف السيد محمد عبد الله هو معارضة هذه المطالب حتى لا يخل بشروط الاتفاق مع القوى المعادية له، وحتى لا يعصف بفرص السلام التي تتيح له المناخ المناسب لاستعادة بناء قوته ونشر مبادئ الطريقة الصالحية بين الدراويش.

ولما عجزت هذه الزعامات الصومالية عن إقناع السيد محمد عبد الله بعدم الاستمرار في التعايش السلمي مع القوى الأوروبية قررت مغادرته والانتقال إلى الداخل. وعندئذ بدأ التغير في موقف الزعيم المسلم حيث أرسل خطابا شديد اللهجة إلى كوردو يطالبه بإعادة تجارة الدراويش وإطلاق حرية رجاله ونسائهم الذين لا يزالون تحت حصار الإنجليز في عدن وبربرة، كما طالبه بسحب قواته من جدباله، وأنهى خطابه بأنه في حالة رفض تنفيذ هذه المطالب فإن ذلك يعني عدم الرغبة في الاستمرار في السلام[2].

وبدأت العلاقات تدخل في طور جديد خصوصا وأن النزاع قد دب بين السيد محمد وسلطات هوبيا، وانتهزت بريطانيا الفرصة وراحت تدعم

مواقعها الأمامية في شرق المحمية خوفا من اعتداء الدراويش عليها. وأرسل كوردو إلى حكومته تقريرا أشار فيه إلى الاعتداءات المتكررة على المحمية البريطانية، وعلى القبائل الصومالية الموالية لهم. ومن هنا بدأت الحكومة البريطانية تدرس الموقف من جديد، ولم يكن أمامها إلا أحد أمرين: إما إعادة تنظيم الحملات المسلحة ضد السيد محمد عبد الله، وإما الانسحاب الكامل من الداخل وترك المنطقة له. ولم تنس الحكومة ما كانت تعانيه من مصاعب وأهوال وتكاليف عسكرية في حملاتها السابقة. فكان قرارها عدم التورط في حروب أخرى مع الدراويش، وكان رد الحكومة على تقرير كوردو أنها لا تحبذ قط فكرة تجدد القتال مع أنصار الجهاد الصومالي.

لكن بريطانيا أحست بزيادة قوة هذا الزعيم المسلم بين قبائل الصومال التي التفت حوله، ووقفت بجانبه تبايعه على الجهاد في سبيل الله، ففكرت في حيلة بارعة للتقليل من شأنه، وللتشكيك في قياداته الدينية، فطلبت من قنصلها في القسطنطينية السعي لدى السلطان العثماني للاتصال بالجهات الدينية في مكة لإصدار إعلان تنكر فيه زعامة المهدى على القبائل في الصومال. لكن فشلت هذه الفكرة[1].

لم ينفد صبر الحكومة البريطانية في محاولاتها للتهوين من مكانه السيد محمد عبد الله الدينية بين الصوماليين، وذلك بمحاولة الاتصال بشيخ الطريقة الصالحية في الحجاز، وقد نظم القنصل الإيطالي في عدن هذه العملية بأن شكل وفدا من بعض زعماء الصومال، وذهب الوفد إلى مكة في يوليه عام 1908، وتقدم بشكوى إلى شيخ الطريقة الصالحية، اتهم فيها السيد محمد عبد الله بالقيام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية. كما قام القنصل الإيطالي بتنظيم رحلة لممثلي الشيوخ الكبار وعلى رأسهم الحاج عبد الله شجارى أخلص أتباع السيد محمد عبد الله ورفيق سلاحه وممثله في مفاوضات أليج ولكنه انقلب عليه فطرده من حركته. وما كان منه إلا أن قبل رئاسة الوفد إلى مكة، وهناك صادق شجارى على شكوى الوفد (1). فأرسل الشيخ محمد صالح خطابا إلى السيد محمد عبد الله، وانتهز الإنجليز الفرصة وقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فكانت الرسالة ذات أثر سيئ على الدراويش لأنها زعزعت الثقة في هذا الزعيم المسلم الذي كان عليه أن يواجه هذه الحملة المسعورة

ضده، والتي تسعى للتشكيك في مكانته وجهاده وهو سلاح أخطر من البنادق والمدافع، وكان عليه أن يتحرك في كل مكان، وأن ينشر الرسائل التي تدحض هذه الادعاء. وأصدر فعلا رسالة بعنوان «قمع المعاندين» أرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية في مكة، وصورة إلى السلطان العثماني في الآستانة [2].

لكن رغم محاولات السيد محمد عبد الله القضاء على هذه الإشاعات إلا أن الرسالة تركت أثرها العميق في نفوس أتباعه، حيث حدث الانقسام بين القيادات الرئيسة لحركة الجهاد، واشتدت العداوة في معسكر المجاهدين، وقد نظم بعض الدراويش اجتماعا سريا لم يحضره السيد محمد عبد الله تحت شجرة ضخمة، وقرر المجتمعون اتخاذ بعض الإجراءات ومنها: إما إعدام السيد محمد عبد الله وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد، وإما عزله لفشله في مقاومة الاستعمار، وإما حل حركة الدراويش وإنهاء الجهاد. ولا أظن أن هناك أخطر من هذا الموقف الذي أوشك أن يقوض الحركة من أساسها بعد هذه الحرب الباردة التي شنتها بريطانيا وربيبتها إيطاليا ضد قوى المسلمين. فكانت هذه المحاولة وما ترتب عليها قد جعلتا موقف السيد محمد عبد الله بالغ الخطورة، وكان عليه سرعة التحرك لمجابهة هذه الحالة التي وصلت إليها أحوال المجاهدين وتآمرهم عليه. فما أن علم بمؤامرة الشجرة حتى أسرع إلى هناك، وقبض على رجال القيادة، وأمر بإعدام من تزعموا هذه الحركة، وأصيب السيد محمد عبد الله بخيبة الأمل من أقرب الناس إليه، وانتابته حالة من القنوط واليأس. لكن الأثر العكسي جعله يسعى لمواصلة الجهاد ضد أعداء الدين.

وهكذا نجحت بريطانيا في فترة الهدوء النسبي بين الطرفين في أن تجند القبائل، وأن تحدث خلخلة في نفوس المجاهدين، وأن تفرق بين جماعات الموحدين باستخدام أسوأ أساليب التآمر والخيانة [1].

رابعا: المرحلة الأخيرة من الصراع مع القوى الأوروبية

انتهزت بريطانيا فرصة الخلافات التي وقعت داخل صفوف الدراويش ومحاولة السيد محمد عبد الله إعادة بناء قواته بعد فترة التمزيق التي انتابت جموع الموحدين، وبدأت ترقب الموقف عن كثب، ووجدت أن السيد

محمد عبد الله تحدوه الرغبة في عقد اتفاق سلام جديد مع بريطانيا بدلا من اتفاق بستالوزا الذي فقد روحه ونصه، فشجعت هذه الفرصة الذهبية بعد وصول خطاب من السيد محمد عبد الله بهذا الخصوص، وقامت على الفور بتكليف السيد ريجنالد وينجت بالسفر إلى الخرطوم في أواخر عام 1959. وقام وينجت فعلا مع وفد ضم رودلف ستالين لتقصي الحقائق، وفوضته حكومته بأن يعرض على شيخ الدراويش مساعدة مالية شهرية قدرها خمسون ألفا من الجنيهات مقابل حسن السير والسلوك [2].

وأرسل وينجت رسالة من بربرة إلى السيد محمد عبد الله شرح فيها رغبة بريطانيا في عقد صلح جديد معه، كما طلب منه إرسال وفد للتفاوض. وجاء رد السيد محمد عبد الله مفيدا: القبض أولا على الصوماليين الذين شوهوا العلاقات بينه وبينهم، وأن ترد بريطانيا السفن التي استولت عليها مع إيطاليا عام 1908، وأن تدفع له تعويضا عن رجاله الذين استشهدوا في نوجال بالإضافة إلى تسليم عدوه عبد الله شجاري [1].

وتعثرت المباحثات بسبب عدم الرد البريطاني على هذه المطالب، وأحس وينجت بفشل مهمته فعاد إلى بلاده وكتب تقريرا سريا شرح فيه سوء نية السيد محمد. وبناء على هذا التقرير كان قرار الحكومة البريطانية إخلاء الصومال من الإدارة، وتركيز سلطاتهم في المدن الساحلية الثلاث بربرة وبلهار وزيلع مع إشراف القبائل الصومالية الموالية لهم على الداخل بعد تدعيمها بالأسلحة والعتاد.

وقامت بريطانيا بنقل كوردو من الصومال إلى أوغنده، وأحلت محله السيد وليم ماننج (Manning) الذي وصل إلى مقر عمله الجديد في يناير عام 1910 بقصد تطبيق سياسة الإخلاء من الداخل والتمركز على الساحل. وكان قرار الإخلاء قد أحدث تصدعا داخل البرلمان البريطاني الذي عارض هذه الفكرة من أساسها.

وترتب على سياسة الإخلاء أن اندفع الدراويش نحو أعوان البريطانيين من الصوماليين وفتكوا بهم، ونكلوا بأجسادهم، وعمت الفوضى، وارتبكت الطرق التجارية مع الداخل، وتدمرت طرق القوافل، وتحولت المراعي ألي ساحات للقتال والاقتتال بين أبناء الشعب الواحد، وعمت الحرب الأهلية ربوع الصومال بعد أن أغرتها بريطانيا بالسلاح والمال.

وانتقل السيد محمد عبد الله من مناطق المحمية الإيطالية إلى مناطق النفوذ البريطاني، خصوصا في منطقة دولباهنت، وبدأ في بناء عدد من الحصون والقلاع وكان أهمها على الإطلاق حصن تاليح (Taleh)، ذلك الحصن الذي ظل مقرا له حتى عام 1920. وشيد السيد محمد قلاعا أخرى في جيد علي ومديشي (Medishe). وكان بناء حصن تاليح يعني اتخاذه حاضرة للدولة الإسلامية الناشئة في الصومال. وتقدم الدراويش نحو قلب الصومال، واحتلوا المعسكرات البريطانية القديمة، واضطرت بريطانيا إلى تغيير القيادة في الصومال، فحل الجنرال بيات (Byatt) محلماننج في عام 1911. وعلى الفور أعد القائد الجديد تقريرا عن الأوضاع السيئة في الصومال، وأوصى بضرورة إعادة النظر في الموقف البريطاني تجاه الصومال. وطالب في نهاية التقرير بتكوين قوة من الشرطة تكون مهمتها المحافظة على النظام في الإقليم، وقبلت حكومة لندن هذا الاقتراح، وتشكلت بالفعل القوة الجديدة بقيادة ريتشارد كورفيلد (R.Corfield) الذي تم استدعاؤه من نيجيريا لتولي القيادة [1].

وفي أول يناير عام 1913 أرسل السيد محمد عبد الله خطابا إلى السلطات البريطانية في بربرة تضمن الشكوى من البريطانيين وسوء معاملاتهم لرجاله، وأعرب عن حسن نيته في عقد اتفاق سلام معهم، واستعداده لرد الغنائم التي سبق الاستيلاء عليها من معسكراتهم. وكان رد القائد بيات سريعا أعرب فيه عن الشك في نوايا السيد محمد الذي يطالب دائما بمقاومة المستعمرين لأنهم كفرة ومشركون [2].

وفي تلك الفترة التي كانت تدور فيها مفاوضات بين البريطانيين والدراويش انتهزت إيطاليا الفرصة، وأرسلت قوة بزعامة الضابط الإيطالي مارتينى إلى مقر مقديشيو لتولى القيادة العسكرية، وليضيق الخناق على الدراويش في الجنوب خصوصا عند مركا. ولما أحست إيطاليا بأن الدراويش قد يشنون حربا عليها بادرت وأصدرت الأوامر إلى سلطات ميجرتين بالهجوم على الدراويش، وأطبق الجيش المشترك على جيش المسلمين في بران، لكن قائد الدراويش حقق نصرا عليهم في 15 أغسطس عام 1911 في موقعة هبرهنيل، وتولى سلطان هوبيا (يوسف بن علي) في العام نفسه، وتولى بعده ابنه على بن يوسف الذي وقع معاهدة مع الإيطاليين تضمنت دفع

جيش الدراويش بعيدا عن هوبيا، والاشتراك مع الإيطاليين في حربهم ضد الدراويش. وهكذا دخل السيد محمد عبد الله في حرب جديدة مع القوات المحلية والقوات الإيطالية في الوقت الذي يسعى فيه لعقد صلح سلام مع البريطانيين. وكل هذا يوضح صلابة جهاد هذا الزعيم الذي يحارب في أكثر من جبهة وضد أكثر من قوة [1].

وسارت إيطاليا على نفس منوال البريطانيين في تدعيم القبائل بالسلاح لمحاربة الدراويش، كما قامت بتحريض القبائل ضده، لكن السيد محمد كان قد ثبت مركزه، وقضى على الفتنة، واتخذ من حصن تاليح مقرا له، وبدأ يعرض على البريطانيين استعداده لعقد الصلح، لكن كورفيلد أفسد هذه المخططات عندما سمع بقدوم قوات الدراويش لاحتلال المواقع بين أودين وبرعو، فأرسل إليه خطابا وصفه بأنه رجل مجنون، وطالبه بالعودة قبل أن تقع المصيبة ويندم على أعماله السيئة [2].

وكان رد السيد عنيفا حيث تضمن عدم الاستسلام رغم كل الظروف وأنه لن يكون عبدا للشرك. واعتبر كورفيلد هذا الرد بمثابة إهانة شخصية له، وطلب من قواته في كل مكان القيام بهجوم شامل على المراكز التي يسيطر عليها الدراويش، وقرر تولي العمليات العسكرية بنفسه، وأن يخوض معركة نهائية ضد الدراويش ليضع فيها نهاية للسيد محمد عبد الله في مدينة تاليح.

وفي 9 أغسطس عام 1913 استعجل كورفيلد اللقاء مع الدراويش، والتقى الجيشان في معركة لم تشهدها المنطقة من قبل حيث سالت الدماء أنهارا، وأظهر الدراويش ملحمة بطولية من القتال ضد القوى الأوروبية. وفي خلال ست ساعات كان الدراويش قد أطبقوا على القوات البريطانية، وقضوا عليها قضاء يكاد يكون تاما، وكلف هذا العمل الطائش من جانب كورفيلد حياته حيث لقي مصرعه على أرض الصومال ومزق جسده شر تمزيق، وهرب من تبقى من قواته، ونشرت الصحف البريطانية في لندن أخبار المعارك تحت اسم «كارثة مروّعة لقواتنا في الصومال»، وخلد السيد محمد عبد الله هذه الحادثة في قصيدته بعنوان «مصرع ريتشارد كورفيلد»[1].

وعاد الدراويش بعد هذا النصر الرائع في سبيل نصر كلمة الله ضد

الكفرة والمشركين إلى مقرهم في تاليح بعد أن صلوا الظهر والعصر على أرض المعركة وقد حصلوا على الكثير من الغنائم والأسلحة والحيوانات [(2)].

وفي الحقيقة فقد رفعت هذه المعركة في دولمادوبي من روح المجاهدين وقوّت من عزم الموحدين، رفعت قائد الجهاد إلى أعلى عليين، وتعلقت به الآمال لتخليص الصومال من الكافرين، ومن وراءهم من المستعمرين الأوروبيين، واعتبر الصوماليون هذه المعركة بداية النصر المبين، وانتشرت الأخبار في كل أنحاء الصومال، وتطايرت أنباء النصر وهزيمة البريطانيين، وصارت قوات الدراويش أكثر حرية في حركتها داخل الصومال، وانضم إليها عدد كبير ممن كانوا في حماية أعداء الدين. وارتعدت فرائص الإيطاليين من هذا النصر المبين، وتغير ولاء عدد كبير من القبائل التي انضمت إلى جانب المسلمين. وباختصار كان النصر بداية مرحلة جديدة في الصراع الإسلامي ضد القوى الأوروبية ارتفعت فيها هامات المجاهدين، وارتفعت كلمة الموحدين، وأعادت القبائل الموالية للأوروبيين حساباتها، وتزود السيد محمد عبد الله بجرعة جديدة أكسبته ثقة وشجاعة وإيمانا بالنصر القريب بإذن الله.

كانت الهزيمة للقوات البريطانية بداية مرحلة من الانتشار والتوسع لقوات المجاهدين حيث استولوا على برعو في 5 من سبتمبر عام 1913، وكانت برعو مركزا استراتيجيا هاما طالما تطلع إليه الدراويش منذ عام 1950، وتحقق حلمهم بعد هزيمة البريطانيين في موقعة دلمادوبي [(1)].

وفي 14 يناير عام 1914 وجه قائد الجهاد خطابا إلى البريطانيين حذرهم فيه من سوء العواقب إذا ما أقدموا على أي عمل لا يوافق عليه، وفي الوقت نفسه وجه قوة من الدراويش إلى بربرة، ونجحت في الاستيلاء عليها في 13 مارس، وانتاب حاكمها البريطاني موجة من الذعر والقلق، وخشي من سقوط المدينة بأسرها تحت أيدي الدراويش، وأحست بريطانيا بخطورة الموقف، فأرسلت قوة نجحت في التغلب على الدراويش، لكنها لم تحقق النصر الكامل بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى وانشغال إنجلترا في أوروبا.

ودخلت عوامل جديدة في هذا الصراع الدائر بين الدراويش والبريطانيين، فلقد تولى حكم الحبشة ليج ياسو في ديسمبر عام 1913،

وحول مقر إقامته من دير دوا (Dire Dwa) إلى هرر حيث توجد الجماعات الإسلامية، وحيث يجد المجال لإنشاء إمبراطوريته الإسلامية بعد أن اعتنق الدين الإسلامي. وكان يأمل في مساعدة الأتراك والألمان له، ودخل ليج ياسو في علاقات مع السيد محمد عبد الله حسن، وأرسل إليه المساعدات المالية والأسلحة، كما أرسل إليه أحد الفنيين الألمان، ويدعى إميل كيرش (Emile Kirsch) لإصلاح الأسلحة الأوروبية في تاليح [2].

كل هذه المواقف كانت في صالح السيد محمد عبد الله الذي قام بالاتصال بالألمان والأتراك في جنوب الجزيرة العربية، بل أرسل مبعوثا إلى القائد التركي على سعيد باشا في عدن في عام 1916، وقد وافق هذا القائد على الاعتراف بالسيادة العثمانية للخليفة محمد الخامس رشاد، لكن السيد محمد عبد الله لم يوقع المعاهدة، ولم يشاهد بنودها لأن الإيطاليين استولوا عليها قبل أن تصل إليه [1].

ولما علمت بريطانيا بمحاولات الدراويش طلب الحماية من الأتراك بدأت توجه الضربات ضد الأتراك، وبعد أن أبعد ليج ياسو عن الحكم أرسلت إلى السيد محمد عبد الله تطالبه بالعدول عن طلب مساعدات الأتراك وبالكف عن القتال، بل التقدم بطلب الصلح، لكن السيد محمد عبد الله أرسل ردا قاسيا حمّلهم فيه تبعة ما حدث، وأنهم هم الذين ضيقوا عليه الخناق، وتحكموا في طرق التجارة، وعرضوا شعبه للموت والهلاك والدمار، وطالبهم إذا كانوا يرغبون في السلام حقا بضرورة العمل على إزالة آثار النار التي أشعلوها مع فتح الطرق التي أغلقوها، والبحث عن اتفاق يرضي الطرفين [2].

وواصل السيد محمد احتلاله المواقع الحصينة منتهزا فرصة انشغال بريطانيا في حربها ضد الألمان والأتراك. ولما أحست بريطانيا أن ميزان الحرب قد تحول لصالحها، وأن الألمان والأتراك يتكبدون الخسائر يوما بعد يوم أرسلت قوة حربية من الهند للحفاظ على موانئ الصومال في بربرة ولاسيما قرى ومدن برعو وهرجيسة حيث دارت مذبحة مروعة بين الدراويش والقوات البريطانية بقيادة فورت بروك، وقد خسر الدراويش مالا يقل عن 170 قتيلا، واضطروا إلى الانسحاب بعيدا في الهضاب جنوب هذا الميناء، وانتهز البريطانيون الفرصة ووزعوا السلاح والذخائر على

أعوانهم لتبدأ المرحلة النهائية من جهاد الدراويش ضد البريطانيين.

خامسا: نهاية حركة المقاومة الصومالية

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، واطمأن البريطانيون إلى تحقيق النصر على أعدائهم، كان قرار الحكومة البريطانية وضع حد نهائي لذلك الثائر المسلم الذي صمد كثيرا وحقق انتصارات عديدة على البريطانيين، وكبدهم من الخسائر مالا تطيق الخزانة البريطانية تحمله، فكان القرار وضع النهاية لهذا المجاهد بأي وسيلة، وبأي تكلفة حتى تستطيع بريطانيا أن تنفذ سياستها في القرن الأفريقي بعد الحرب، وحتى تستعيد كرامتها التي دنسها هذا المجاهد المسلم. ومن هذا المنطلق كانت الحملات العسكرية البريطانية القادمة ضد السيد محمد عبد الله أشد عنفا، وأكثر ضراوة، وتهدف أساسا إلى ضربه في الصميم، والقضاء على حركته التي سببت لها الكثير من المتاعب.

قامت الحكومة البريطانية بتكليف الجنرال هوسكنز بالتوجه إلى بربرة لوضع تقرير عن الموقف العسكري، كما وافقت الحكومة على خطة الهجوم وعلى أساس تدخل القوات الجوية لأول مرة مع القوات البرية والبحرية، وأن تشترك الفرقة الجوية المعروفة باسم وحدة زد (Z) بقيادة الكابتن غوردون، وذلك بقصد قصف مواقع الدراويش وتهديدهم وتشتيتهم في مجموعات مبعثرة يسهل تعقبها والقضاء عليها.

وتضمنت الخطة أيضا أن تقوم القوات البحرية بإرسال ثلاث سفن حربية لمحاصرة الساحل، وضرب مواقع الدراويش، وقطع إمكانية أي اتصالات مع الساحل وإمكانية تزويده بالأسلحة من البحر، وقد تكتمت الحكومة البريطانية أخبار هذه الحملة حتى تكون مفاجأة للدراويش، ورغم كل هذه السرية فقد علم السيد محمد عبد الله بهذه الاستعدادات. فأخذ يعيد تنظيم صفوفه ويجمع قواته، وقام بنقل مركزه من قلعة تاليح إلى مديشى (Medishe) التي تبعد حوالي عشرين كيلومترا شمال غرب جيد علي.

وقبل أن تبدأ عمليات المعركة الأخيرة، طالبت الحكومة البريطانية من ممثلها في بربرة ويدعى آرثر ضرورة التنسيق مع الحكومة الإيطالية في

مقديشيو ومع الزعماء الموالين لهم حتى تكون الخطة كاملة ومحكمة. وأرسل السير آرثر إلى سلطان ميجرتين يحثه على الاستعداد لقتال السيد محمد عبد الله يوم 21 يناير وذلك في آخر محاولة للفتك به والتخلص منه. كما أن بريطانيا قد قررت منح خمسة آلاف روبية هندية لمن يسلم السيد محمد عبد الله حيا أو ميتا. وكان رد السلطان في ميجرتين الاعتذار عن هذا العمل المفاجئ، لكنه وعد بالتعاون مع القوات البريطانية.

وفي 21 من يناير عام 1920 بدأت الطائرات الحربية بقصف مواقع الدراويش في مديشي، وقد انفجرت إحدى القنابل في خيمة السيد محمد عبد الله نفسه انتهت باستشهاد عمه الشيخ حسن نور وبعض زعماء الحركة. لكن السيد محمد قد ترك هذا المكان، واعتصم في إحدى الخنادق على بعد عشرين كيلومترا في الشمال الغربي من مديشي. ومن هذا المكان أعلن الحرب فورا بعد أن وضع خطة للرد على تدخل الطيران في المعارك. واستمر القصف الجوي لمدة ثلاثة أيام بالإضافة إلى المدفعية التي أحرقت قلاع الدراويش في مديشي، وأدت هذه العمليات الحربية إلى تفكك القيادة الإسلامية، ودب الرعب في نفوس الناس من جراء هذا القصف الوحشي وانغلاق الطريق أمام المجاهدين إلى المحمية الإيطالية [1].

وأمام هذا الضغط المكثف جوا وبحرا قرر السيد محمد عبد الله الانسحاب إلى تاليح (Taleh). لكن عندما علم الإنجليز بانتقاله إلى هذا المكان أمطروه بوابل من النيران، وقاذفات الطائرات التي كبدت الدراويش خسائر فادحة، ومات عدد كبير من قوات المجاهدين، وأحرقت بعض الأوراق الخاصة بقائد الجهاد.

وفي 4 من فبراير بدأت ثلاث طائرات حربية من قاعدة عفاروين هجومها الشامل على قلعة تاليح، واستطاعت هذه الطائرات وهي تحلق على ارتفاع منخفض إحراق كل أماكن استحكامات الدراويش، ولم يجد السيد محمد عبد الله بدا من ترك المكان كليا حيث غادره مع حوالي ستين رجلا من فرسانه يرافقهم ابنه الأكبر مهدى، واتجهوا نحو الباب الجنوبي للقلعة وسط ستار ضخم من الدخان في طريقهم إلى أوجادين حيث استقر بهم المقام في منطقة باخيري (Bagheri) التي تقع بين الوالوال ونهر شبيلي.

وسقطت أسرة السيد محمد عبد الله في الأسر ومعها بعض زوجاته

وبناته وبعض رجال الحركة، واندفع البريطانيون خلف السيد محمد عبد الله على أمل القبض عليه ولكن باءت المحاولة أيضا بالفشل. وهكذا انتهت هذه الحملة الخامسة دون أن يتحقق الهدف في القضاء على السيد محمد عبد الله، ورغم تدخل الطيران وما أحدثه من تغير كبير في سير المعارك والتدمير الشامل لكل أماكن السيد محمد، وقطع خطوط إمداداته وتموينه إلا أنه نجح في الخروج من هذا المأزق بعد تلك الهجمة الشرسة.

ورغم ضياع الأرض والمال والأهل والعشيرة وأسرته لم يتخل السيد محمد عبد الله عن جهاده وعن صراعه مع قوى البغي حتى النهاية، ولم يترك قيادة شعبه في محاولاته الأخيرة لتحرير وطنه من الأجانب، ولم يلق السلاح، بل على العكس أقسم على استمرار النضال حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وحتى يحرر الوطن أو يهلك دونه، أو تكتب له الشهادة في سبيل نصرة الدين وحماية الوطن من عبث العابثين من تلك الحفنة من الكافرين.

ومن هذا المنطلق واصل السيد تحركاته حتى استقر أخيرا في جوار هي وهناك انضم إليه من بقي على قيد الحياة من المخلصين حتى بلغ عددهم أكثر من ألف مقاتل، ومعهم بعض الأسلحة الحديثة. وبدأت الاستعدادات من جديد لخوض غمار معركة أخرى. خشيت بريطانيا من استفحال أمر هذا الثائر العنيد، ورأت أن تهدده قبل أن يستفحل شره من جديد، فقامت بمبادرة أخرى أعلنت فيها عن رغبتها في إنهاء الحرب إذا قبل شروط البريطانيين. ونجح الحاكم آرثر في إرسال خطاب إليه في أواخر مارس عام 1920 عن طريق إحدى زوجات السيد محمد، وقد جاء في هذه الرسالة ما يفيد أنه قد فقد قواته وثروته ونساءه وأطفاله وقلاعه، وأنه إذا استسلم في خلال أربعين يوما فسوف يمنح الأمان، وسوف يسمح له بالعيش في مكان آمن حسب طريقته الخاصة، ويمارس عقيدته الدينية. كما طالب الحاكم السيد بالحضور قبل مضي المدة المحددة لفترة السلام إذا كانت لديه الرغبة في ذلك [1].

وفي 25 مارس أرسل السيد محمد عبد الله خطابا مع السيد علي جوهر يتضمن رد السيد محمد وشروطه، وجاء فيه تفنيد كامل لكل ادعاءات البريطانيين عن الدراويش، وطلب فيه تطبيق العدالة في هذه القضية،

وأنه يرغب في استرداد حقوقه كاملة.

وجاء رد حاكم الصومال البريطاني ويدعى آرثر بأن قدم له بعض شروط الصلح ومنها:

أولا: أن يحدد له مكانا في الجانب الغربي لرعي الماشية، وأن يستقر السيد فيه ويؤسس طريقته، وسوف تعاد إليه أسرته بعد أن يسجل أسماءهم مبعوثون من طرفه مثل الشيخ علي جوهر وعثمان بن الشيخ حسن.

ثانيا: إن الماشية التي يحضرها السيد محمد عبد الله هي ملك له، وإذا لم تكن كافية فسوف تعيد إليه بريطانيا عددا آخر يكفي متطلبات رجاله وأتباعه، ولن تتدخل بريطانيا في شؤونه الدينية، كما لن تعارض رغبته في الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج.

ثالثا: ليس من اختصاص السيد تنظيم القبائل وحكمها. فهذا من اختصاص الحاكم البريطاني.

رابعا: في حالة نشوب صراع بينه وبين القبائل فإن الأمر سيحال إلى الحكومة التي ستتولى الحكم بالعدل في مثل هذه الشكاوى.

وفي نهاية الخطاب طلب آرثر من السيد عبد الله قبول هذه الشروط أو رفضها. وفي حالة القبول عرض عليه الحضور مع وفد خلال أربعين يوما[2].

ومن الاستعراض السريع لهذه الشروط البريطانية يظهر لنا رغبة بريطانيا في مسالمة هذا الثائر بأي وسيلة، ومحاولة إرضائه بأي شكل من الأشكال، وأنها تفضل أن يواصل جهوده في النواحي الدينية، وأن يمارس طريقته الصالحية بعيدا عن شؤون الحكم والسياسة مع إعطائه الأمان وتحديد المكان الذي يمارس فيه هذا النشاط الديني، كما أنها عرضت عليه في ثنايا الشروط عدم معارضتها لسفره إلى مكة لعله يجد في هذا الاقتراح هوى وقبولا فيترك البلاد ويهاجر إلى الأراضي المقدسة بعد أن خسر كل شيء. لكن البطل الذي تخطى مرحلة الوعظ والإرشاد، ونشر الطريقة الصالحية قد أصبح في نظر قومه بطلا سياسيا، وأملا في تحرير بلاده من الاستعمار. ومن هنا لم تجد الشروط استجابة، ولم يفكر السيد في الرحيل بل قرر مواصلة النضال حتى النهاية. ورغم كل هذه العروض فقد قابل السيد الوفد البريطاني الذي يحمل آخر شروط السلام وظل الوفد ضيفا عليه، وبعد عدة أيام كان رد السيد محمد عبد الله الذي

تضمن قبول الشروط لكنه يرغب في تحقيق ما يلي:

أولا: أن تعاد إليه ماشيته وأغنامه وفرسانه وأسلحته ومجوهراته والعملة الذهبية التي قدرها على النحو التالي:

1-العملة الذهبية مائة ألف جنيه إسترليني

2- النقود ثلاثمائة ألف جنيه إسترليني

3- الدولارات عشرون ألف دولار

4- خمسة صناديق من الماس بالإضافة إلى ألف لؤلؤة.

ثانيا: عودة جميع الأسرى الذين وقعوا في أيدي البريطانيين.

ثالثا: عودة المباني والمنشآت الخاصة به.

وعاد الوفد إلى الحاكم البريطاني وهو يدرك فشله في تحقيق هذه المطالب.

وبعد أن غادر الوفد تحرك السيد محمد إلى المنطقة الحبشية في 10 أكتوبر عام 1920 حيث التقى أحد الضباط وقال: إنه قد جاء من منطقة الصومال البريطاني بعد أن فقد كل شيء، وأنه قد جاء طالبا الحماية، وأرسل في الوقت نفسه إلى القائد الحبشي لأقرب موقع ويدعى فيتوراري أربع بنادق ومسدس كهدية، وطلب بعض المؤن مقابل ذلك. لكن قبض على رجاله وكبلوا بالسلاسل. وقد حل المرض وربما الأنفلونزا بمعسكر هذا البطل. وبعد ستة أيام من المرض مات السيد محمد عبد الله في 23 نوفمبر عام 1920، ودفنه أتباعه في كوخ ومقبرة صغيرة في إيمى. ولما علم تلاميذه بأن الإنجليز يبحثون عن جثته ليمثلوا بها انتقاما لمصرع كورفيلد قاموا بفتح القبر من جديد ودفنوه في مكان مجهول.

وهكذا انتهت قصة هذا البطل المسلم الذي ظل يكافح طوال ثلاثة عقود من الزمان امتدت من عام 1899 حتى عام 1920، حارب فيها قوات ثلاث دول هي بريطانيا وإيطاليا والحبشة ناهيك عن القبائل المحلية والعشائر التي تحالفت مع القوى الأوروبية ضده، وهذا ما جعل نضاله يحمل طابعا خاصا، ويتسم بلون جديد ربما يختلف عن بقية نضال الأبطال المسلمين في القارة الأفريقية في الفترة الزمنية نفسها. فكان السيد بطلا قوميا ومعلما، وشيخا لطريقة إصلاحية صوفية، وكان يجاهد بالسيف والقلم، يعلم مبادئ الطريقة الصالحية التي ضارعت ونافست أقوى الطرق في المنطقة، وكان

يصارع ضد قوى البغي والعدوان حيث صار جهاده رمزا لكفاح شعب تمزق وتفرق، وتوزع على القوى الأوروبية بشكل لم يسبق له مثيل في القارة الأفريقية.

ناضل السيد محمد عبد الله، وظل رابط الجأش، قوى الإيمان، واسع الحيلة، عبقريا ذكيا دبلوماسيا، تارة يجنح للسلم، إذا كان في ذلك مصلحة المسلمين، وتارة يجنح للسيف إذا كان الوقت مناسبا لتلقين الأعداء درسا في النضال والجهاد. لقد عرضوا عليه الكثير وأغروه بالمال والمناصب فما لان ولا استكان ولا انحنى للأوروبيين ولا تأثر بكل ما قدموه من عروض دنيوية زائفة، بل أجبرهم على المثول بين يديه طالبين رضاه، عارضين عليه شروط السلم والأمان فكان يفاوض من مركز القوة، ويتفاوض بالحق واليقين. لم يفرط في وطنه أو دينه، وفضل الآخرة على الدنيا، وجاهد وناضل جنود أقوى الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وحطم معنوياتها وشكك في قدراتها على هزيمته مهما أرسلت من حملات، ومهما غيرت من قيادات. لقد جعل هذه الدولة القوية بريطانيا تستعين بإيطاليا على أمل الوساطة لدى السيد محمد عبد الله طلبا للصلح بعد أن فشلت كل السبل للقضاء على هذا المناضل الوطني الإسلامي. لقد تحالفت بريطانيا مع الحبشة ومع إيطاليا والكل يهدف إلى القضاء على هذه الحركة الإسلامية، لكن النصر كان حليف المسلمين، وفشلت الحملات الخمس التي وجهت للقضاء على حركته، وخرج منها السيد محمد منتصرا وأشد قوة وبأسا.

لعل هذه الوقفة البطولية الجريئة أمام المتآمرين قد جعلت منه بطلا قوميا محنكا، ورغم خسارته لكل شيء حتى أبنائه وأسرته، ورغم خسارته الأرض والمال، والأمن والأمان إلا أنه لم يفقد الشجاعة والعزم على المضي حتى النهاية وحتى الشهادة في سبيل الله، فلم يفرط في دينه وعقيدته، وظل حتى النهاية هدف المستعمرين الذين رصدوا الأموال الضخمة مقابل القبض عليه حيا أو ميتا، لكنهم عجزوا حتى النهاية عن العثور عليه، وفي كل مرة يحكمون الدائرة عليه كان يخرج منها سليما أشد صلابة من المرة السابقة، وأكثر عزيمة على المضي قدما نحو هدفه النبيل في مقاومة الاستعمار وعودة الديار إلى المجاهدين المسلمين، ونشر طريقته الصالحية

بين سكان الصومال. لقد ظل ثابت الخطى، قوي العزيمة، عالي الهمة، شامخ الهامة واضعا نصب عينيه هدفه الكبير ألا وهو تحرير الصومال من المستعمرين حتى سقط صريع المرض. لقد كان صموده وجهاده آية في النضال تحتذى، وصارت وقفته أمام الأوروبيين نموذجا لكفاح شعب طويل، فلم يتوقف الجهاد برحيل البطل بعد هذا الكفاح المشرف، لكنه استلهم من روحه البطولة والإقدام، وظل الشعب الصومالي يناضل على مدى أربعين عاما حتى تحقق استقلاله، ورحل المستعمر من أرض الصومال ومن ديار الإسلام والمسلمين.

ومهما يقال عن حركة جهاد السيد محمد عبد الله إنها فشلت في طرد المستعمرين إلى البحر، بل زادت من توسعاتهم في بلاده فإن الحركة رغم هذا الكفاح المستمر قد تركت وعيا صوماليا ونموذجا للوطنية صارا نبراسا لبني الوطن استلهموا منهما روح النضال والإصرار على تخليص الوطن من ربقة الاستعمار والتحكم الأجنبي [1].

وسيظل الشعب الصومالي يذكر هذا المجاهد كبطل قومي ومؤسس للقومية الصومالية أكثر منه شيخا لطريقة صوفية. فلقد كانت أمنية هذا البطل الصومالي بناء حركة قومية تسمو فوق الانقسامات العشائرية أو النعرات القبلية، وكان يعدل من خططه الحربية لكي تتلاءم مع واقع الحياة الصومالية. واستطاع بحنكة سياسية، وأيد بارعة أن يستخدم الوسائل التقليدية، كما استعان بوسائل القربى والنسب من عشيرة والده مع التزاوج من مختلف العشائر في خلق روح قومية تسمو فوق الاختلافات القبلية، وأعاد للمنطقة وحدة لم تشهدها من أيام الإمام أحمد بن إبراهيم في القرن السادس عشر.

ويبقى التساؤل الأخير قبل أن ننهي سيرة هذا البطل القومي الصومالي وذلك الزعيم الديني.. ما هي العوامل التي أدت إلى فشل هذه الحركة القومية في طرد القوى الأجنبية؟

لعل أسباب ذلك ترجع إلى العوامل الآتية:

أولا: استخدم السيد محمد عبد الله حسن أسلوب العنف في بعض الأحيان مع القبائل المتمردة من الصوماليين، الأمر الذي جعل هذه القبائل تقف في وجه حركته، وتأخذ منها موقف العداء بدلا من مؤازرتها والانضمام

إلى صفوفها. ثانيا: ظهور السيد محمد عبد الله في وقت لم يكن الوعي قد نضج بعد بين الصوماليين الذين عاشوا جماعات قبلية متنافرة تسعى كل منها وراء العشب والكلأ والماء، وهي أمور تحتاج إلى الصراع والتكالب بدلا من التعاون والتكاتف.

ثالثا: صراع السيد محمد عبد الله ضد قوى أوروبية قوية، وفى منطقة صارت أكثر أهمية في طرق المواصلات العالمية، وفي فترة التكالب على القارة الأفريقية بشكل عام، والقرن الأفريقي بشكل خاص. وكان هذا الصراع الأوروبي لا يقبل بوجود قوة تعرقل تحركات قواته فيما سماه الأوروبيون الأرض التي لا صاحب لها (Res Nellius). يضاف إلى ذلك أن جهاد السيد محمد عبد الله جاء في فترة اتحاد الحبشة بعد فترة طويلة من الصراع بين مختلف الرؤوس. وتعارضت أهداف المجاهدين مع آمال منليك الثاني إمبراطور الحبشة الذي يسعى للتوسع في أرض الصومال ومؤازرة القوى الأوروبية له حتى تظل الحبشة القوة المسيحية القوية في القارة.

رابعا: كانت الظروف كلها ضد حركة السيد محمد عبد الله حسن، ففي الوقت الذي بدأ يجد الحليف للوقوف في وجه القوى الأوروبية، يصاب هذا الحليف بالطرد أو الهزيمة. فالإمبراطور الحبشي ليج ياسو اعتنق الدين الإسلامي وبدأ يسعى للتحالف معه لتكوين قوة ضاربة ضد المستعمرين. لكن سرعان ما أقصى هذا الحاكم ففقد السيد محمد عبد الله حليفا هو في أمسّ الحاجة إليه. وفي الوقت نفسه بدأ يسعى للتحالف مع الأتراك حماة الإسلام في المنطقة، ووجد فيهم عونا له في مرحلته الأخيرة، لكن الأتراك انهزموا في الحرب العالمية الأولى وخسر السيد هذا التأييد التركي.

خامسا: كثرة هزائم البريطانيين أمام جيوش المسلمين خلال كل الحملات السابقة جعلتهم يفقدون الوعي ويتناسون القيم والمثل العليا ويستخدمون أبشع الوسائل المدمرة. وكان استخدام الطيران لأول مرة لقمع الحركات الوطنية، وتعقب المجاهدين العزل المثل الحي لهذا الحقد الدفين الذي أعمى عيون المستعمرين، فكبدوا شعب الصومال من الخسائر مالا يحتمل، واضطر السيد في النهاية إلى الانسحاب بعيدا عن مناطق الدمار والخراب حتى يجد ملاذا في أرض الأوجادين استعدادا لجولة جديدة من الصراع

والنضال، لكن المرض لم يمهله فسقط مريضا وراح ضحية هذا المرض بعد أن أدى الواجب وحمل الأمانة، ولقن المستعمر دروسا في التضحية والفداء.

وأخيرا كان من أسباب فشل هذه الحركة الصومالية هو عجز السيد محمد عبد الله عن جمع شمل كافة القبائل الصومالية للوقوف يدا واحدة أمام عدو واحد مشترك، ولقد عرف شعب الصومال هذا المغزى بعد رحيل البطل الذي وضع لبنات القومية فوق كل اعتبار، ووضع أسس النضال على أساس قومي بعيدا عن القبلية والعشائرية. وفهم شعب الصومال أن الفرقة والتشيع لا تفيد إلا المستعمر، فالتف حول قياداته الجديدة التي استلهمت روح النضال من بطل القومية الصومالي حتى تحقق الاستقلال، وعادت أجزاء الصومال التي كانت تحت السيطرة الأوروبية الإيطالية والبريطانية تحت لواء دولة واحدة، ويسعى شعب الصومال إلى جمع بقية الأجزاء التي ضاعت إبان فترة التكالب الاستعماري على أراضيه [1].